

تفسير البحر المحيط

@ 267 @ وقد تقدّم قول المفسرين في طوله ، ونبه على استحقاق طالوت للملك باصطفاء
إِله على بني اسرائيل { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ
الْخِيرَةُ } وبما أعطاه من السعة في العلم ، وهو الوصف الذي لا شيء أشرف منه :
إِنَّ مَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ { أنا أعلمكم باً ومن بسطة الجسم
، فإن لذلك عظماً في النفوس وهيبة وقوة ، وكثيراً ما تمدّحت العرب بذلك قال الشاعر :
% (فجاءت به سبط العظام كأما % .
عمامته بين الرجال لواء .
%) .
وقال : % (بطل كأن ثيابه في سرحه % .
يحدى نعال السبت ليس بتوأم .
%) .
وقال : % (تبين لي أن القماء ذلة % .
وان أعزاء الرجال طيالها .
%) .
وقالوا في المدح : طويل النجاد رفيع العماد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، إذا
ماشى الطوال طالهم . قال ابن زيد : كانت هذه الزيادة بعد الملك ، وقال وهب ، والسدي ،
قبل الملك ، فالمعنى : وزاده على غيره من الناس بسطة ، بالسين ، أبو عمرو ، وابن كثير
، و : بالصاد نافع ، وابن كثير ، رواية النقاش ، وزرعان ، والشموني . وزاد : لئن بصطت
، وبباصط ، وكباصط ، ومبصوطتان ، ولا تبصطها كل البصط ، وأوسط ، وفما اصطاعوا : ويصطون
، والقسطاس ، وروى نحوه : أبو نسيط عن قالون . .
{ وَاللَّهِ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ظاهره أنه من
معمول قول النبي لهم ، لما علم بغيتهم في مسائلهم ومجادلتهم في الحجج التي تبديها ،
أتم كلامه بالأمر القطعي ، وهو أن الله هو الفاعل المختار ، يفعل ما يشاء . ولما قالوا :
وَنَزَحْنُ أَحَقُّ بِإِلْمِ لَوْكَ مِنْهُ { فكان في قولهم ادّعاء الأحقية في الملك ، حتى
كأن الملك هو في ملكهم ، أضاف الملك إلى الله في قوله : ملكاً ، فالملك ملكه يتصرف فيه
كما أراد ، فليست بأحق فيه ، لأنه ملك الله يؤتیه من يشاء ، وقيل : هاتان الجملتان ليستا
داخلتين في قول النبي ، بل هي إخبار من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم) ، فهي

معتضة في هذه القصة ، جاءت للتشديد والتقوية لمن يؤتية الله الملك ، أي : فإذا كان الله تعالى هو المتصرف في ملكه فلا اعتراض عليه { لَا يُسْأَلُ عَمَّا سَفَعَالُ يَفْعَلُ } وختم بهاتين الصفتين ، إذ تقدّم دعواهم أنهم أهل الملك ، وأنهم الأغنياء ، وأن طالوت ليس من بيت الملك ، وأنه فقير فقال تعالى : إنه واسع ، يوسع فضله على الفقير ، عليم بمن هو أحق بالملك ، فيضعه فيه ويختاره له . .

وفي قصة طالوت دلالة على أن الإمامة ليست وراثية ، لإنكار الله عليهم ما أنكروه من التملك عليهم من ليس من أهل النبوة والملك ، وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب ، ودل أيضاً على أنه لا حظ للنسب مع العلم ، وفضائل النفس ، وأنها مقدّمة عليه لاختيار الله طالوت عليهم ، لعلمه وقدرته ، وإن كانوا أشرف منه نسباً . .

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة الإخبار بقصة الخارجين من ديارهم ، وهم عالم لا يحصون ، فراراً من الموت ، إما بالقتل إذ فرض عليهم القتال ، وإما بالوباء ، فأما تهم الله ثم أحياءهم ليعلموا أنه لا مفر مما قدّره الله تعالى ، وذلك لئلا نسلك ما سلكوه ، فنحجم عن القتال ، فأتت هذه الآية مثبتة لمن جاهد في سبيله ، وذكر تعالى أنه ذو فضل على الناس ، وذلك بإحيائهم والإحسان إليهم ، ومع ذلك فأكثرهم لا يؤدّي شكر الله . ثم أمر بالقتال في سبيل الله ، وبأن نعلم أنه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، ثم ذكر أن من أقرض الله فاضاعفه حيث يحتاج إليه ، ثم ذكر أن